

طبيب الموحدين محمد بن سحنون الند رومي الكومي
(580هـ - بعد 634هـ / 1184م - بعد 1237م)

د.نصر الدين بن داود
قسم التاريخ - جامعة تلمسان

تمهيد :

عرف علم الطب في الفترة الوسيطة بمصطلح صناعة الطب ، وقد تكلم عنها ابن خلدون بالصناعة التي تبحث في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها على حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية¹ وقد عرف هذا العلم مند العصور القديمة وارتبط ببعض المعتقدات الباطلة التي ترى أن الأمراض هي أرواح شريرة حلت بالأبدان ولا أمل في علاجها إلا بالسحر، ولهذا ارتبطت مهنة السحر بالطب وظل الأطباء يمارسون السحر في علاج مرضاهم حتى بدأ تنظير هذا العلم عند اليونان واصطبغ بالصبغة الفلسفية ثم بعدهم الرومان والفرس حتى ظهر الإسلام واعتنى بالطب لما له من أهمية في الحفاظ على صحة الإنسان إذ أن من مقاصد كلياته الحفاظ على النفس ومراعاتها في جانبي الوجود و العدم ، فكان اهتمام علماء الإسلام بهذا العلم انطلاقا من الطب النبوي وقاعدته لكل داء دواء ، فازدهر وتطور مشرقا ومغربا حتى جاء العهد الموحي من سنة 524هـ / 1110م إلى 668هـ/1269م وبروز الفقيه والقاضي ابن رشد ومن تلامذته محمد بن سحنون

- من هو محمد بن سحنون؟

- كيف وصل ابن سحنون لمرتبة طبيب خلفاء الموحدين ؟

- ماهي إسهاماته الحضارية وماهي أثاره العلمية ؟

- **محمد بن سحنون :-1 مولده ونشأته :** هو محمد بن سحنون المكنى بأبي عبد الله ولد بقرطبة حاضرة الأندلس نحو سنة 580هـ/1184م ونشأ بها² وهو يعرف بالندرومي الكومي³ فالندرومي نسبة لمدينة ندرومة التي أخذت اسم قبيلة ندرومة والتي هي بطن من كومية التي عمرت منطقة فالوسن خلال القرن 3هـ/9م ، والكومي نسبة لقبيلة كومية والتي هي قبيلة من بربر البتر من بطون بني فاتن من فروع ضريسة⁴ ،وقد عمّرت شمال منطقة تلمسان وانتقلت من هنين إلى ندرومة . ومن ندرومة هاجر والد محمد بن سحنون نحو بلاد الأندلس

طبيب الموحدين محمد بن سحنون الندرومي الكومي... د/ نصر الدين بن داود

ولعل هذه الهجرة قد تكون بعد دخول الموحدين إلى الأندلس مع منتصف ق6هـ/12م فنشأ بقرطبة قاعدة الأندلس وقطبيها ومنها تكون وجهته نحو اشبيليا (سيفيليا) (sevillie)

2- محمد بن سحنون باشبيليا :

اشبيليا سفيليا sevillie حاضرة الموحدين، تمتد جنوب غرب قرطبة تقع على ضفة الوادي الكبير. وهي مدينة قديمة أزلية عظيمة الشأن طيبة المكان بها جامع عظيم بناه الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علي وبها صومعة عظيمة بناها ولده يعقوب المنصور وتفسير اشبيليا بلسان القوط المدينة المنبسطة وهي عروس الأندلس لخصبة تربتها تنوع غرسها⁵

اشتهرت اشبيليا بعلمها و آدابها ومنها صناعة الطب التي اشتهر بها بنو زهر الذين توارثوها عن جدهم عبد الجبار بن أبي سلمة القرشي الزهري دخل الأندلس مع موسى بن نصير ، وفي عهد المرابطي برز أبو العلاء زهر بن عبد الملك ثم ابنه عبد الملك بن أبي العلاء صاحب كتاب «الأغذية» وكتاب «التيسير في المداوات والتدبير»⁶ وقد أضافه إلى مؤلفات ابن رشد بعد الاتفاق معه حتى يكون متمما لكتاب «الكليات» ، ثم نبغ بعده محمد بن عبد الملك بن زهر وهو طبيب الخليفة المنصور ، فكان طبيب اشبيليا حتى وفاته سنة 595هـ /1196م⁷.

هذا الرصيد العلمي الطبي باشبيليا كان دافعا لابن سحنون للتوجه نحو دراسة الطب والبحث عن أساتذته ، فانكب ابن سحنون على طلب العلم ومجالسة العلماء حتى يكون له نصيب المعرفي من علم الآداب والفقه والحديث والطب ومن العلماء الذين كان لهم فضل تكوين عالمنا.

3- من أساتذة ابن سحنون

- العالم أبو الوليد ابن رشد :

قال ابن أبي أصيبعة « وكان قد لحق القاضي أبا الوليد ابن رشد واشتغل عليه بصناعة الطب »⁸ هو من أعلم علماء الأندلس قاضي جماعة قرطبة وفقهها وفيلسوفها وطبيبها وهو الأديب اللغوي والنحوي وتوفي سنة 595هـ/1198م⁹ إن ابن سحنون أدركه في آخر حياته وهو مع منتصف العقد الثاني من عمره وابن رشد كان بين قرطبة واشبيليا وجيها لدولة الموحدين على عهد المنصور وأبيه الناصر ، تميز في علم الطب وله فيه مصنف كتاب « الكليات » قال فيه: « فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا وأبينه »¹⁰ وله شرح الأرجوزة في الطب لابن سينا ولخص كتاب «الحميات» وكتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «حلية البرء»

طبيب الموحدين محمد بن سحنون الندرومي الكومي... د/ نصر الدين بن داود

لجالينوس وله مقالة في نوائب الحمى ومقالة في حميات العفن . وقد كان ابن رشد فضلا عن ممارسته للطب والتأليف فيه، لا ينقطع عن التدريس من قرطبة واشبيلية كانت بها فرصة ابن سحنون لمجالسة والاغتراف من ينابيعه وخاصة ينبوع الطب .

- أبو الحجاج يوسف بن موراطير :

أصله من موراطير قرية قريبة من بلنسية السياحية على بحر الروم (البحر المتوسط) عمّر طويلا ووفاته كانت بمراكش على عهد دولة المستنصر¹¹ الذي حكم من سنة 610 إلى 620 هـ فهو العالم الطبيب والأديب الشاعر تخصص في الطب وبرع فيه حتى أصبح خبيرا بصناعة الطب ومزاولا لأعمالها .

خدم بصناعة الطب الخليفة المنصور ثم ولده الناصر ثم يوسف بن الناصر ، وقد كان نصيب ابن سحنون من ابن موراطير في مجالسته والانتفاع به فثبت ما أخذ عن ابن رشد وزاد في توسيع معارفه وتعميق مفاهيمه الطبية فضلا عن أدبه وشعره .

4- من فضائله:

يقول أحمد بن أبي أصيبعة عن محمد بن سحنون : « جليل القدر، فاضل النفس ،محب الفضائل ،حاد الذهن،مفرط الذكاء »¹²

فهذه شهادة من طبيب و مؤرخ عاصره و ترجم في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأدباء لكبار الأطباء من زمن اليونان والرومان إلى عهد الدولة الأيوبية والدولة الموحدية فهو من أشهر الكتب في تاريخ الطب

فقد كان محمد بن سحنون جليل القدر ذا منزلة محترمة فاضل النفس محب الفضائل فهو متخلق بالخصال الحميدة ومحب الشمائل الفاضلة ومن طبيعة النفس وتواضع وكان ذهنه حادا وذكاؤه مفرطا ،فهو صاحب ذكاء قوي ذو نظرات عميقة مكنته من النظرة المتفحصة والعميقة في مسائل العلم والمعرفة .

5- نشاطه الطبي :

مع خلفاء الموحدين : بعد تحصيله وتكوينه أصبح من أطباء الأندلس علما ومزاولة له حتى أصبح من الأطباء الخاصين بخلفاء الموحدين وقال ابن أبي أصيبعة : وخدم الناصر في آخر دولته بصناعة الطب وخدم بعد ولده المستنصر¹³ .

عند الخليفة أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله :حكم من 595هـ/1198م إلى 610هـ/1213م دخل الأندلس سنة 608هـ/1210 وأقام فيها نحو عامين، في عهده كانت نكبة المسلمين في معرفة العقاب 15 صفر 609هـ/16 جويلية 1212م¹⁴ خدم ابن سحنون الخليفة الناصر في آخر عهده إلي أن وافته المنية في 10 شعبان 610هـ/10 ديسمبر 1213¹⁵ بعده واصل خدمة الموحدين مع الخليفة أبي يعقوب يوسف بن محمد المستنصر بالله حكم من 610هـ/1213م إلى سنة وفاة 620هـ/1223م¹⁶ وخلال هذه الفترة واصل الطبيب ابن سحنون خدمة خلفاء الموحدين .

مع حكام بني هود :

بعد ضعف الموحدين ودخولهم في صراع على العرش برر زعيم جديد على الساحة السياسية بالأندلس هو محمد بن يوسف بن هود الجدامي والذي تلقب « بسيف الدولة » مع سنة 624هـ/1227م وهو من أحفاد حكام سرقسطة¹⁷ وقد دعا إلي تحرير الأندلس من النصارى والمأمون الموحي الذي تحالف مع ملك قشتالة ، فأيدوه أهل الأندلس . بدأ بتوحيد شرق الأندلس ثم اتجه نحو الغرب ،ولكن ظهور الطامعين إلى السلطة وتصارع المسلمين فيما بينهم، مكّنت المماليك المسيحية من الوحدة في جبهة واحدة والانتصار على المسلمين .

فمن هذا المنطلق نجد ابن سحنون قد وقف إلى جانب بني هود مع النجاء سالم بن هود ،ثم أخوه أبي عبد الله بن هود. وفي هذا يقول ابن أبي أصيبعة . « وخدم بعد ذلك النجاء سالم بن هود ، و لأخيه أبي عبد الله بن هود صاحب الأندلس »¹⁸

6-آثار ابن سحنون :إن المصادر التي ترجمت لابن سحنون جاءت مادتها شحيحة ،وأشارت إلى كتبه مما يدل على مساهمته وآثاره المخطوطة في المجال العلمي ومنها ما ذكره ابن أبي أصيبعة» ولأبي عبد الله الندرومي من الكتب اختصار كتاب المستصفى للغزالي «¹⁹ وهذا الكتاب لأبي حامد الغزالي 450هـ/1058 505هـ/1111م يتناول أركان ، علم أصول الفقه ، وهو في أربع أجزاء الجزء الأول المقدمات المنطقية والأحكام الجزء الثاني الأدلة ، الجزء الثالث طرق الاستنباط ، الجزء الرابع الاجتهاد²⁰.

وتتجلى قيمة هذا الكتاب من تثمين ابن خلدون له فقد ذكر في مقدمته : «وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لإمام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من الأشعرية وكتاب العمدة لعبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة وكانت الأربعة قواعد هذا الفن وأركانه»²¹ وأهمية كتاب المستصفى تتواصل مع تطور المراحل حيث

طبيب الموحدين محمد بن سحنون الندرومي الكومي... د/ نصر الدين بن داود

قال ابن خلدون: « ثم لخص هذه الكتب فحلان من المتكلمين المتأخرين وهما فخر الدين الخطيب في كتاب المحصول وسيف الدين الأمدى في كتاب الإحكام »²²

وقد أدرك ابن سحنون أهمية هذا الكتاب فقام هو كذلك بتلخيصه ليكون في متناول طلبة علم أصول الفقه وكلمة من « الكتب » التي ذكرها ابن أبي أصيبعة قد توحى أن لابن سحنون كتب أخرى ، إلا أنها في عداد المفقودة، ولعل البحث العلمي التاريخي عن هذا التراث قد يصل إلى الجديد.

وفي الخلاصة :

إن أبا عبد الله محمد بن سحنون الندرومي الكومي قد مثل بحق علماء ندرومة بلد آبائه وأجداده باشييلية مستقره دارا وممارسة لصناعة الطب، فبرع ونبغ فيه، فكان بجدارة الطبيب الخاص للخلفاء والحكام من الموحدين ومن بني هود، ويقي المجال للبحث والتنقيب عن هذا العالم وآثاره لإبراز مساهمته العلمية في الطب والفقه والأصول.

الهوامش

- 1- عبد الرحمان بن خلدون : المقدمة ، الدار التونسية للنشر 1984 ج : 2 ص: 619 .
- 2- ابن أبي أصيبعة أحمد أبو العباس : عيون الأنباء في طبقات الأطباء شرح وتحقيق نزار رضا مكتبة الحياة بيروت دت ص 537 .
- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية بيروت لبنان ط 3 1402 هـ/ 1983 م ص 330 .
- 3- ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص 537 - نويهض : معجم : ص 330 .
- 4- ابن خلدون: المصدر السابق م . ج ص 2415
- 5- مؤلف مجهول : تاريخ الأندلس دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1428 هـ/ 2008 م ص : 111.
- 6- ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية عام 1496 م وظلت هذه الترجمة سارية المفعول في الطب الإيطالي حتى القرن السابع عشر - عبد الحميد السامرائي : تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهد المرابطين والموحدين دار شموع الثقافة الزاوية ليبيا ط 1.2002 . ص : 120 .
- 7- السامرائي - المرجع السابق ص 83 .
- 8- ابن أبي أصيبعة : نفسه ص: 537.
- 9- ابن أبي أصيبعة : نفسه ص : 532.
- ابراهيم بن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب . تحقيق علي عمر مكتبة الثقافة الاسلامية القاهرة ط 1 1423 هـ/ 2003 م ص 238 .
- 10- ابن أبي أصيبعة : نفسه ص 531 .
- 11- نفسه ص 534 .
- 12- نفسه ص 537 .

- 13- نفسه 537.
- 14- عبد الواحد المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت لبنان ط: 1: 1426 هـ/ 2006 م ص 235.
- محمد ابن سماك العاملي المالقي الغرناطي : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية دار الكتاب العلمية بيروت لبنان ط 1 2010 ص 243 .
- علي ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس راجعه- عبد الوهاب بنمصور الطبعة الملكية الرباط 1420 هـ/ 1999 م ص 316 .
- 15- المراكشي : المعجب ص -236 ابن السماك العاملي: الحلل الموشية ص 244 -ابن أبي زرع : روض القرطاس ص 317 .
- 16- المراكش : المعجب ص 240 -ابن السماك : الحلل الموشية ، ص : -246 ابن أبي زرع: نفسه ، ص 320.
- 17- سعدون نصر الله : تاريخ العرب السياسي في الأندلس ، دار النهضة العربية بيروت لبنان ط 1 1998 ص 348.
- شبارو عصام محمد : الأندلس من الفتح العربي المرصود الى الفرس المفقود ، دار النهضة العربية بيروت لبنان ط 1 2002 م/ 1423 هـ ص 282.
- 18- ابن أبي اصيبعة : نفسه ، ص 537
- 19- نفسه ص -537 عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان دت ج : 10 ص 18
- 20- محمد بن محمد أبو حامد الغزالي : المستصفى من علم الأصول ، دراسة وتحقيق حمزة بن زوهير حافظ كلية الشريعة المدينة المنورة دت ج : 1 ص 3
- 21- عبد الرحمان بن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ص 554
- 22- ابن خلدون : نفسه ، ج : 2 ص 55